العلاّمة نوري جعفر

عالم في التربية ورائد في التنوير والاصلاح

سيرة مبدع

في قضاء القرنة بمحافظة البصرة وفي عام 1914 ابصر النور الطفل نوري ابن الفلاح جعفر الذي لم يقدر مواهب ابنه ونبوغه المبكر ،فاراده فلاحا ليعينه على شؤون زراعته ولكنه فضل عليه في هذه المهمة اخاه راضي(والد الاكاديميين والاديبين د عبدالكريم ود محمد راضي جعفر) الذي ظل بمفارقة قدرية عجيبة اميا حتى نهاية حياته ،ويصبح شقيقه نوري احد ابرز العلماء في العالم في مجال علم النفس والتربية بحسب تقييم رئاسة المجلس الدولي للموهوبين في الولايات المتحدة الامريكية والذي انتدبه من بين خمسة من العلماء النفسانيين في العالم لالقاء محاضرات تربوية ونفسانية في هذا المجلس . ابتسم القدر له في هذه المفارقة مع وجود امه حليمة بنت محمد الجلبي التي كانت تدرك قيمة الدراسة والتعلم فارسلته الى مدرسة القرنة الوحيدة القريبة من التقاء نهري دجلة والفرات ،وفي المقابلة الاولى مع مدير المدرسة ادرك انه امام طفل موهوب سيكون له شأن في المستقبل لذا امر بادخاله الصف الثاني بدلا من الصف الاول بعد ان قرأ له احدى ايات القران حفظا وبالمقلوب .

اعداد وتحرير توفيق التميمي

القســــم الاول

سيرة وذكريات

في المقابلة التلفزيونية الوحيدة له مع الاعلامية والمترجمة السيدة ابتسام عبدالله في برنامجها الثقافي الخالد (سيرة وذكريات) يقول نوري جعفر عن هذه الفترة :(والدي فلاح بسيط ووالدتي بنت عمه ...غير ان اباها في نظر اهل البلدة اكثر وجاهة من ابي ،ولها في الحقيقة الاثر

القرآن وكان ذلك في العشرينيات ولي شقيق واحد هو راضي ، وعندما فتحت مدرسة ابتدائية في القرنة 1926 الحّت امي على الوالد ان ياخذني وياخذ شقيقي ويسجلنا في المدرسة ولكنه مانع ومانع بعنف ،هو لم يكن مرتاحا لي كثيرا لاني كثير الحركات على حد وصفه ، لذا وافق على تسجيلي انا فقط في المدرسة معتقدا ان المدرسة كان فيها نوع من عقوبة لي).

بين سندرسن باشا وفاضل الجمالي

بين خريجي الثانوية كان نوري جعفر الاول على لواء البصرة بمعدل 94% من الفرع العلمي ،حمل شهادة البكالوريا واوراقه وجاء الى العاصمة بغداد قاصدا كلية الطب لتحقيق حلم طفولته وهو واثق من تحقيقه بسبب درجاته العالية ومؤهلاته العلمية لكنه صدم بامتحان المقابلة التي تجريها كلية الطب للمتقدمين برئاسة عميدها الانكليزي الطبيب سندرسن باشا (طبيب العائلة المالكة لاحقا)، الذي سأله بعد ما رآه بزيه الريفي :هل بمستطاعه ان يصرف كل شهر (5) دنانير على شراء كتبه الدراسية في الطب ؟،فأجابه بطيبة الفلاح الجنوبي الفقير: لا أنا ولا أبي شاهدنا ال(5) دنانير هذه! فرفض الانكليزي سندرسن باشا قبوله في كلية الطب رغم ان معدله كان 94% من الفرع العلمي مما دعاه الى تحويل أوراقه الى دار المعلمين العالية ودعمه في قبوله ومساعدته د فاضل الجمالي(رئيس وزراء في العهد الملكي لمرتين) بعد ان تلمس علامات نبوغه واعجب بدرجاته العالية ،ليكون من ابرز طلابها واساتذتها لاحقا .

كان من بين المتفوقين من خريجي دار المعلمين العالية (ما تسمى اليوم بكلية التربية) ، وعندما كان الخبير التربوي د. فاضل الجمالي مديرا للدعاية العامة لوزارة الداخلية ابان الحكم الملكي في العراق عين الدكتور نوري جعفر والذي يقدر مواهبه منذ تعرفه اليه في دار المعلمين العالية مديرا لاذاعة بغداد والتي اتبع فيه اسلوبا صارما في الادارة ومحاصرة اوجه الفساد في الصرف المالي الفائض.

ويبدو ان رغبته في الكلية الطبية قد تضاءلت بعد قبوله في دار المعلمين العالية وتخصصه التربوي يقول د جعفر نفسه عن ذلك :(كنت ارغب في الدخول الى الكلية الطبية ولكن الظروف المادية حالت من دون ذلك ، ولو خيرت بعد ان تعرفت على تخصصي فلن ادخل الا لكلية التربية اقصد دار المعلمين العالية، ولو طلب مني ان اتخصص فلن اتخصص الا في التربية وعلم النفس لانها في الواقع اصبحت جزءا مني ،ذهبت للخارج وكان ولعي في التربية ينمو بتاثير الدكتور متي العقراوي عميد دار المعلمين العالية وبتاثير الدكتور احمد عزت راجح وهما من ابرز اساتذتي الذين رسخوا قيمة هذا التخصص في سيرتي العلمية).

صداقة مع جون ديوي

بعد حصوله على البكلوريوس بتفوق اصبح معيدا في الدار ثم ذهب الى القاهرة للدراسة في (معهد التربية العالي) منتصف الاربعينيات من القرن السابق ،وبعدها تمكن من الحصول على بعثة دراسية الى امريكا ليحصل من هناك على شهادتي الماجستير و الدكتوراه ب(خمس) سنوات فقط ،وكان دراسته حول فلسفة التربية للفيلسوف الامريكي منظر الفلسفة البراغماتية وصاحب الريادة العالمية في افكار التربية وعالم النفس الفيلسوف الامريكي جون ديوي والذي من جهته أعجب بذكاء الطالب العراقي ونباهته وتنبأ له بمستقبل زاهر يخدم به بلده والإنسانية جمعاء فاصبح له استاذا وصديقا وزميلا في الاختصاص التربوي لاحقا ..

وعن هذه المرحلة يروي نوري جعفر ذكرياته للاعلامية ابتسام عبدالله في برنامجها سيرة وذكريات فيقول: عندما ذهبت في بعثة علمية الى الولايات المتحدة لاكمال دراساتي العليا في تخصصي التربية وعلم النفس بين عامي 1945 /1949 ..ومن حسن الحظ صار لي اتصال بالفيلسوف (جون ديوي) ،اذ صارت لي علاقات شخصية معه واهداني احد كتبه ..ولم يكن مشرفا علي بل كان متقاعدا حين تعرفت عليه ولكنني ارتبطت معه شخصيا امكث عنده في البيت وآخذ المعلومات منه ..بقيت عنده في شقته بنيويورك شهرا باكمله كنت اقرا كتبه واحفظها جملا وكانها من بنات افكاري وكنت وقتها من الطلبة البارزين المبتعثين للولايات المتحدة الامريكية وكان يصلني كل ثلاثة اشهر تقريبا كتب شكر وتقدير لمستواي العلمي من سعادة السفير علي جودة الايوبي. ويمكن اعتبار لقاءه القدري بجون ديوي منظر البراغماتية والديمقراطية هو احد مؤثرات التنوير في سيرة العلامة نوري جعفر اللاحقة في بلده العراق .

خارج السرب

يقول تلميذه د الدكتور امجد حسين في رسالة الى ياسر جاسم قاسم مؤلف كتاب نوري جعفر رجل النهضة والاصلاح :(في طليعة الخمسينيات من القرن الماضي كانت افكار المربي والفيلسوف الامريكي جون ديوي التي كان الدكتور نوري جعفر ينهل منها ويطرحها علينا بمثابة فتحة مشرقة في ليل الظلام الفكري الذي كان النظام السياسي ووكلاؤه الاكاديميون يحاولون فرضه على جيل يضج بالحيوية والنزوع الى التحرر من التقليدية والتبعية الجامدة ،وللانصاف لايمكن ان ادعي بان افكار الدكتورنوري جعفر كانت متطابقة مع الايدلوجيا اليسارية السائدة في صفوف جيل الخمسينيات ،لكنها كانت بوجه مؤكد تغرد خارج اسراب الببغاوات ،وكانت نافذة (التربية) التي فتحها لنا فريدة في تقدميتها اذا ما قورنت بدهاليز الرتابة والصوانية التي كان يحبسنا في ظلامها اكاديميون من ذوي الاختصاص نفسه).

نوري جعفر في بغداد

عند عودة الدكتور نوري جعفر الى بغداد عُين أستاذا في كلية دار المعلمين العالية التي تخرج فيها ليكون واحدا من المع الكفاءات التي اسهمت في بناء جيل علمي ،حتى مجيء (جلاوزة الحرس القومي) عام 1963 اذ فصل من وظيفته ظلما في قائمة ضمت اكثر من 100 استاذ في مختلف التخصصات العلمية والانسانية لاسباب سياسية ، ولكنه تفرغ للبحث العلمي ليبدع في ميدانه ويعرف ببحوثه الفائقة في الجامعات العالمية مما اضطرت السلطة لاعادته الى الوظيفة في الجامعة عام 1970 ابان حكومة البكر صدام .. حتى احال نفسه الى التقاعد بعدما لاقى من عنت السلطات ما لاقى وليكون عرضة مرة أخرى لمتطلبات الظروف المعيشية القاسية التي مرت في العقود الماضية وتحت ضغوط عديدة منها ماهو سلطوي مباشر ومنها اجتماعي معيشي فاجبر على الهجرة، واختار ليبيا اذ التقى به احد طلابه الذي أصبح أمينا عاما للتعليم العالي فقال له: لدي كلية جديدة وأريدك عميدا لها وفعلا جعله عميدا للدراسات العليا هناك. كانت بصحبته ابنته خلود للقيام على خدمته بعد ما ماتت زوجته المريضة بالقلب. الطريف في الأمر بقي العالم نوري جعفر في ليبيا ليبدع ويطور موهبته العلمية بما توفر له من جو وموقع وظيفي ممتاز وتجاوزت كتبه المؤلفة والمترجمة وقتذاك أكثر من 36 كتابا مطبوعا و عشرات البحوث والدراسات مازال أثرها باقيا في معظم جامعات العالم.

واقعتان مهمتان

شهد عام 1954 حدثين مهمين في تاريخ العراق اولهما كان فيضان بغداد الذي وقع نهاية اذار من ذلك العام، والثاني هو حادثة تزوير الانتخابات البرلمانية التي اقدمت عليها حكومة نوري السعيد حيث الغت نتائج فوز اكثر من 11 مقعدا للقوى اليسارية والديمقراطية ،وما حدث للعلامة د. نوري جعفر في دائرة مدينته القرنة الانتخابية يعد مثالا صارخا لهذا التزوير ،عندما عمدت حكومة نوري السعيد لتحطيم صناديق الاقتراع التي امتلات باسم الدكتور نوري جعفر المرشح عن دائرة مدينته القرنة مع زميله اليساري عامر الحسك واستبدلتهما بالتزوير بمرشحيهما وهما اصلا من خارج قضاء المدينة ،الا ان نوري جعفر لم يستسلم وهو الموظف الحكومي الحاصل على شهادة الدكتوراه من الولايات المتحدة الامريكية وباختصاص نادر في العراق ،فملأ صفحات الصحف بالاحتجاج على فضيحة التزوير وعار الغاء الانتخابات حتى تم استدعاؤه من قبل رئيس الوزراء آنذاك ارشد العمري ودار بينهما حوار متشنج وتاريخي يكشف شجاعة ووطنية نوري جعفر ، كما يكشف بؤس وضحالة خصمه رئيس الوزراء ارشد العمري ،وتم فصل نوري جعفر من وظيفته التعليمية عقب هذه المحاورة التي طلب فيها العمري من جعفر ان يكف عن مقالاته الانتقادية للحكومة في الصحف وفضحه لعملية تزوير الانتخابات ، الا ان العالم نوري جعفر رفض تلك المساومة حتى لو كان الثمن خسارة وظيفته التي يعيش منها .

حساسية ضد التحزب

رغم معارضته للحكم الملكي والذي كان يرى فيه شرا مطلقا ،(ولذلك كان من الدعاة المتحمسين لفكرة الجمهورية التي تحقق مبادئ العدل الاجتماعي والمساواة بين مواطنيها وتضمن كرامتهم وهي افكار كان اليسار العراقي قد اشتقها من مبادئ الثورة الفرنسية المعروفة وبشر لها بين صفوف الشباب والطبقات المثقفة والاكاديمية)، رغم ذلك الا ان نوري جعفر ورغم ايمانه بالمرجعيات الماركسية التي تؤمن بالتطور التاريخي والصراع الانساني الا انه كاي مفكر كان ذا عقلية مرنة ،وذكاء متميزا ، فكان حساسا من الانخراط في الاحزاب لافقها الايدلوجي الضيق رغم توجهاته الليبرالية والعلمانية ،ونظرياته في علم النفس التربوي وميله للنظريات الاشتراكية بتفسير الذكاء ومستوياته و تنديده بالتصنيف بين البشر على اساس لون او عرق التي عادة ما يلجأ اليها منظرو المدرسة الراسمالية والانظمة العنصرية التي تصنف الشعوب على اساس طبقات ومنازل ،ورغم ميله للماركسية كمرجعية فكرية ، الا انه ظل عصيا على الانخراط في الاحزاب او تمثيلها ، ربما احد ابرز المثالب التي يأخذها مؤرخو سيرة نوري جعفر هو رؤيته القاصرة والمنفعلة للحكم الملكي والذي كان يراه شرا مطلقا وسوادا حالكا لا بقعة ضوء فيه ، ولذا فكان اكثر المستبشرين بثورة 14 تموز التي الف لها كتاب خاص بعنوان (الثورة مقدماتها ونتائجها) ،ودفع ثمنا لموقفه هذا من الفصل والاعتقال بعد سقوط جمهوريتها ابان حكومة الحرس القومي التي اقصته من الجامعة والوظيفة حيث شغل منصب المدير العام لدائرة التخطيط في وزارة المعارف بعهد الزعيم قاسم لا لتأييده للثورة وزعيمها بل بجدارة شهادته العليا في التربية وتدرجه الوظيفي ،فكانت فترة الحرس القومي حقبة سوداء من الصمت الاجباري للدكتور نوري جعفر والعشرات من امثاله من المفكرين والتربويين الاحرار حيث قطع تسلسل مؤلفاته التي كانت تظهر كل عام من اعوام حياته الخصبة ليخلد الى الصمت والعزلة .

مغنية الحي لاتطرب

مثل شائع يردده المفكرون والعلماء المغبونون في وطنهم وبلدانهم والتي لاتقدر مكانتهم العلمية ولامنزلتهم الاجتماعية ،ونوري جعفر واحد من هؤلاء الذين عانوا الحيف والتهميش والاقصاء في بلدانهم ،ولكن برغم ذلك لم يمنعه ذلك من مواصلة مشروعه الابتكاري والتاليفي في علوم النفس والتربية ضمن اطار وطني ما امكنه ذلك في الاسهام ببناء جيل جديد على اسس تربوية معاصرة وتنويرية مغايرة للاسس التقليدية المحافظة .

طالبه نجم يتذكر

لاتمر ذكرى نوري جعفر في ذاكرة وخاطر تلميذه النجيب الدكتور نجم حيدر استاذ الدراسات العليا في علوم الجماليات في اكاديمية الفنون الجميلة حاليا الا ويردد مقولة (مغنية الحي لاتطرب) مخلوطة ببكاء مر على غياب استاذه الذي رحل عن الحياة بعد ان ترك عشرات من القصص والدروس في روح تلميذه الذي تحولت حياته النزقة بعد لقائه باستاذه الى حياة تبحث عن المعاني الكبيرة والمضامين الانسانية الرفيعة ، يقول نجم حيدر : رفقته رفقة مع كل المبادئ والقيم التي تمثلها عبر حياته طالبا واستاذا ، فكانت لي فرصة عظيمة قلما تتاح لاحد من الطلاب ، تعلمت منه دروسا تربوية اكثر مما تعلمته من دروس علمية كان يمليها علي بين الحين والاخر ، ليكون نجم حيدر صاحب الحظ الكبير في كونه الطالب الوحيد الذي وافق الدكتور جعفر الاشراف على رسالته في علم فلسفة الجمال.

ليبيا محطته الاخيرة

اختار ليبيا كمرفأ اخير في حياته الجليلة ،اذ التقى به احد طلابه الذي أصبح أمينا عاما للتعليم العالي فقال له: لدي كلية جديدة وأريدك عميدا لها وفعلا جعله عميدا للدراسات العليا هناك. كانت بصحبته ابنته خلود للقيام على خدمته بعد ما ماتت زوجته المريضة بالقلب ليكون نوري جعفر ابا واما لثلاث بنات وولده الوحيد علي دون ان يفكر مطلقا بالزواج ثانية . الاب المثالي

تقول ابنته الصغرى (نجود) اصبح ابي لنا بمثابة الام والاب في آن واحد ،وبالفعل فان جوده وتعامله الخاص معنا اشعرنا بحنان ورعاية لامثيل لها ليملأ فراغ رحيل والدتنا بطريقة لايمكن وصفها ،فبنفس لحظة رحيل والدتنا كان هو محتضنا لنا بحبه الحقيقي بمثابة الاثنين معا في آن واحد ومنذ تلك اللحظة جند نفسه لنا وضحى بما تبقى من عمره لاجلنا كما كان يكرر على مسامعنا :امكم ترككم امانة .

تقول ابنته نجود عن اللحظات الاخيرة من عمره الشريف))رحل عنا عن عمر يناهز ال77 عاما 1991 اثر سكتة قلبية، فكان مصابا بالزكمة في تلك الفترة وكنا معه نحن ابناؤه الثلاث (انا وخلود واخي علي) وقبيل نومه بدقائق طلب مني ومن اختي خلود بالكتابة نيابة عنه ،بعد استلقائه على الفراش احسست خلود بتوقف تنفسه وعم السكون المكان فقد رحل عنا ..ولم افهم انذاك ان توسله بنا في الكتابة لانه سيرحل ولم يتسن له ترك علمه حتى لحظاته الاخيرة).

قصة مفبركة

هذه القصة تختلف تماما عن القصة التي روجت لها بعض مواقع الانترنيت التي تتحدث عن نهاية مزعومة في مقتله على يد سائق ليبي حاول سرقة الحقيبة التي كانت بحوزته متوهما انها مملوءة بالنقود فانهال عليه بآلة حادة اردته قتيلا، تمت هذه الحادثة المفبركة وهو في طريقه الى مطار طرابلس متوجها الى لندن ، وتداولت وسائل الاعلام هذه الواقعة المفبركة دون تحقق ، وتبين من خلال رواية ابنته نجود التي واكبته حتى اغماضة عينيه لاخر مرة وكذلك شهادة ابن اخيه الشاعر والاكاديمي الدكتور محمد راضي جعفر التي فندت ايضا وقائع القصة المفبركة والتي لااساس لها من الصحة والتي تطابقت مع رواية ابنته نجود التي روتها للباحث ياسر جاسم.

برغم ايمانه بالمرجعيات الماركسية التي تؤمن بالتطور التاريخي والصراع الانساني الا انه كأي مفكر كان ذا عقلية مرنة وذكاء متميز

الاصالة في مجال العلم و الفن
نوري جعفر

طبيعة الانسان في ضوء فسلجة بافلوف

فلسفة التربية







رؤيــة

علمني نوري جعفر

اتألم كثيرا كما يتألم معي الكثيرون ممن تعلموا من كتابات نوري جعفر الموسوعية التي لم تتوقف عند اختصاصه في العلوم التربوية المعتمدة على العلوم الفسلجية او النفسية او البلاغية او التراثية او التاريخية ،بسبب اغفال ذكره ونسيان جهوده واغماط دوره الفكري والمعرفي وعدم اعطائه استحقاقه من مساحة الاهتمام والاحتفاء به ولو على بقعة ضئيلة من اراضي الثقافة العراقية الشعرية والسردية المترامية حتى هذه اللحظة .

فنوري جعفر العالم البصري العراقي التنويري المتوفى في ليبيا 7/11/1991 ، هو اديب ومؤرخ وعالم متخصص في فسلجة الدماغ وعلوم التربية ، اغنى المكتبة العراقية بالعشرات من المؤلفات والكتب في هذه الاختصاصات المتنوعة وعلى فترات طويلة وصلت لحدود 36 كتابا ،وابدع بها جميعا ، وتميز في مؤلفاته باسلوبه الساحر الاخاذ الذي يمسك بلباب القارئ منذ الوهلة الاولى ويقوده الى نهايات فصوله رغم وعورة الموضوعات العلمية التي يتناولها وصعوبتها لاسيما في موضوع فسلجة الدماغ الذي تميز به وربطه بموضوعات ممتعة ومثيرة ،كموضوع النبوغ والمواهب والذكاء والقدرات الذهنية ،كما جهد في استخلاص صور التنوير من تراثنا العربي واعادة قراءة رموزه الكبيرة كالجاحظ وابن سينا وغيرها من الموضوعات بطريقة معاصرة فذة في تحليلها واستنباطاتها .



توفيق التميمي

انفرد اسلوبه الادبي الثر بتقريب المادة العلمية الجافة بطبعها ونظرياتها الصماء الى ذائقة الجمهور العريض ،فله الفضل الاكبر علي وعلى اقراني في تحبب قراءة الكتب العلمية والتي كنت عازفا عن قراءتها قبل معرفتي بعالم نوري جعفر التاليفي ،فما زالت القطيعة بين الادباء والعلماء قائمة في ثقافتنا العراقية بخلاف ثقافات عربية اخرى ،ولهذا يندر ان نجد طبيبا او عالما فيزيائيا او كيميائيا يشتهر في عالم الادب كما في نماذج المبدعين الشاملين في مصر وبلاد الشام والمغرب العربي. يمكن ان يعد نوري جعفر نموذجا شاذا في الثقافة العراقية على هذا المستوى وفي صميم هذه الظاهرة ، حيث انتج نوري جعفر كتبا علمية صرف مثل (الفكر تطوره وطبيعته) ومثل (الانسان في ضوء فسلجة بافلوف بجزءيه)وغيرها من العناوين العلمية ،ولكنه قدمها باسلوب شيق وممتع ،ولغة جذابة استقطبت قراء الادب والعلم على السواء .

نوري جعفر احد رموز التنوير التي قدمتها بعثات العهد الملكي المدني في بواكير النهضة العراقية عقب تأسيس الدولة العراقية ،لكن طبيعة تقاليد الثقافة الشعرية وسيادة رموزها اعاقت بروز هذه القامات العملاقة المعرفية على مساحة شعرية تضيق برموز النهضة والتنوير، وكما اغفلت دورها في الثقافة العراقية ،فمنذ غيابه 1994 وباستثناء جهود فردية قام بها د نجاح كبة في كتابه(نوري جعفر وآراؤه التربوية والنفسية والاجتماعية ط1 بغداد 2004)والباحث ياسر جاسم قاسم في كتابه القيم (نوري جعفر رجل النهضة والاصلاح ط1 2011 دمشق) ،لم نر استذكارا لهذا العالم الفذ ،او اضاءة معرفية تستحقها سلسلة المؤلفات الموسوعية التي انجزها خلال عمره الجليل ،ولم تفكر عمادة كلية التربية في جامعاتنا لاسيما البصرة المولود في بطائحها ، ان تطلق اسمه على احدى قاعاتها التدريسية والتي درس فيها طالبا في مدارسها الابتدائية والثانوية ،ولم تفكر مؤسسة حكومية ولامدنية باعادة طبع اعماله ،والتي بدأها منذ مطلع خمسينيات القرن السابق رغم ندرتها واهميتها ،ولم يجهد احد الباحثين نفسه في تتبع المسيرة العلمية المكللة بالنجاح في اروقة الجامعات العربية والعالمية لعالمنا العراقي البصري نوري جعفر.